المحاضرة الثالثة و الرابعة

آثار الذنوب و المعاصى

عناصر المحاضرة :

1. باب التوبة مفتوح للعبد ما لم يغرغر.
2. شروط و أركان التوبة.
3. أضرار المعاصى.

أولاً: باب التوبة مفتوح للعبد مالم يغرغر

معنى التوبة:

أن يقلع المرء و يبتعد عن المعاصى و الذنوب و يتندم على ما سلف منه فى الماضى و يعزم على ألا يفعل ما يغضب الله فى المستقبل.

عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود إليه

ممن يقبل الله التوبة؟

يقول سبحانه (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم و كان الله عليما حكيما)

و المعنى {إنما يقبل الله التوبة من العبد الذى ارتكب المعصية و هو فى حال جهل بكونها معصيه أو حال جهل بعقاب الله عليها}

من قريب : أى قبل ان يغرغر

و لذلك تتبع هذه الآية بقوله تعالى: (و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن و لا الذين يموتون و هم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما)

و يؤكد ذلك قوله تعالى فى قصة فرعون و موسى (و جاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون و جنوده بغيا و عدوا حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو

اسرائيل و أنا من المسلمين -90- ءالآن و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين -91- فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية و ان كثيرا من الناس عن آيتنا لغافلون)

و يقول النبى صلى الله عليه و سلم (ان الله عز و جل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)

و فى حديث ابى هريرة أنه صلى الله عليه و سلم قال (من تاب قبل ان تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه)

و الله عز و جل يقبل التوبة عن عباده و يتجاوز عن سيئاتهم برحمته و فضله و يؤكد ذ لك قوله تعالى (ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده و يأخذ الصدقات و أن الله هو التواب الرحيم)

و فى الحديث المشهور ، أن الجبال قالت يا رب ائذن لى أن أطبق على ابن آدم فقد طعم خيرك و منع شكرك و قالت السماء يارب ائذن لى ان اسقط كسفا على ابن آدم فقد طعم خيرك و منع شكرك و تقول الأرض يا رب ائذن لى ان اخسف بابن آدم فقد طعم خيرك و منع شكرك و تقول البحار يا رب ائذن لى ان اغرق ابن آدم فقد طعم خيرك و منع شكرك ، فيقول المولى عز و جل: دعونى و خلقى لو خلقتموهم لرحمتومهم ان تابوا الىّ فأنا حبيبهم و ان لم يتوبوا فأنا طبيبهم.

و الله تبارك و تعالى يدعونا الى التوبة و الرجوع و الانابة اليه سبحانه و يؤكد ان ذلك هو سبيل الفلاح و النجاة فى الدنيا و الآخرة

فيقول عز و جل (و توبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون)

و قدوتنا و اسوتنا نبينا محمد صلى الله عليه و سلم المعصوم الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و أول من يدخل الجنة ، الشافع و المشفع حبيب الرحمن (كان يستغفر الله و يتوب اليه فى اليوم اكثر من سبعين مرة) ، فعن ابى هريرة رضى الله عنه قال سمعت النبى صلى الله عليه و سلم يقول: (و الله انى لأستغفر الله و أتوب اليه فى اليوم اكثر من سبعين مرة)

و عن ابى حمزة أنس بن مالك الانصارى خادم النبى صلى الله عليه و سلم قال: قال النبى صلى الله عليه و سلم (لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من احدكم كان على راحلته بأرض فلاه ، فانفلتت منه و عليها طعامه و شرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضجع فى ظلها و قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك اذا هو بها قائمة عنده بخطامها (الحبل الذى تقاد به) ثم قال من شدة فرحه : اللهم انت عبدى و انا ربك أخطأ من شدة الفرح)

ثانيا: شروط و أركان التوبة:

يظل البعض حين يتصور أن التوبة متيسرة بلا نظام مهما فسق المرء و اقترف من آثام و ليس الامر كما حسب و ليست المسألة كما ترددها الشفاة بلا ندم و لا ارتداع ، فالتوبة لها شروط و اركان و صدى فى سلوك المرء بها تتحقق التوبة و بها تقبل ان شاء الله ، فللتوبة شروط ثلاثة اذا كانت فى حق الله و شروط اربعة اذا كانت فى حق البشر:

1. الاقلاع عن المعصية و مفارقتها فى الحال.
2. الندم على فعلها ، ومن علامة ذلك الحزن على ما فات بأمارة الدموع التى تغرورق بها عيناك كلما تذكرت هذه المعصية ، فعن عبد الله بن مسعود قال قال النبى صلى الله عليه و سلم (الندم توبة).
3. ان يعزم على الا يعود الى هذه المعصية ابداً.
4. و اذا كانت المعصية متعلقة بحق آدمى وجب عليه أن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كان هذا الحق مالاً ترده الى صاحبه و تعتذر اليه قبل ألا يكون درهم و لا دينار ، و إن كنت قد اغتبت أخاك أو خضت فى عرضه فاطلب منه العفو و السماح من قبل أن يقتص الله منك فيؤخذ من حسناتك بقدر مظلمة اخيك فإن لم يكن لك حسنات أخذ من سيئاته فحملت عليك.

فقد روى البخارى فى صحيحه عن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه و سلم قال: من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون درهم و لا دينار ، إن كان له عمل صالح أخذ بقدر مظلمته و إن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه.

ثالثاً: أخطار المعاصى:

1 -حرمان العلم:

لما جلس الشافعى بين يدى مالك و قرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته و توقد ذكائه و كمال فهمه فقال: (إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية) ، و قال الشافعى

شكوت الى وكيع سوء حفظى فأرشدنى الى ترك المعاصى

وأفهمنى بأن العلم نورٌ و نور الله لا يهدى لعاصى

2 -وحشة فى القلب:

وحشة بين العبد و ربه ، وحشة بين العبد و أهل الخير

3 -ظلمة فى القلب:

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما (إن للحسنة ضياءا فى الوجه و نوراً فى القلب و سعة فى الرزق و قوة فى البدن و محبة فى قلوب الخلق و إن للسيئة سواداً فى الوجه و ظلمة فى القلب و ووهناً فى البدن ونقصاً فى الرزق و بغضة فى قلوب الخلق)

4 -حجاب عن الله عز و جل يوم القيامة:

قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكذبون * كلا بل انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم انهم لصالوا الجحيم * ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون)

5 -إلف المعصية و الجهر بها:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: (كل أمتى معافىً إلا المجاهرين و إن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح و قد ستره الله فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا و كذا و قد بات يستره ربه و يصبح يكشف ستر الله عنه)

6 -هوان المعصية على المصرِّين عليها:

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه و إن الفاجر يرى ذنوبه كذباب حر على أنفه فقال به هكذا!!

7 -المعاصى تزرع أمثالها:

قال بعض السلف:

(إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها و إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها)

8 -وقوع صاحبها تحت لعنة الله و رسوله:

أكل الربا – شرب الخمر – السارق - من سب أباه و سب أمه– الراشى و المرتشى – المرأة تهجر فراش زوجها – الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات .... الخ

9- حرمان الرزق:

يقول المولى سبحانه (ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب)

و بالمقابل فإن من لا يتق الله لن ينال موعود الله فى الآية لعباده المتقين.

10- تزيل النعم:

قال تعالى(و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير)

و يقول ايضاً (ظهر الفساد فى البر و البحر بما كسبت أيدى الناس)

و يقول تعالى (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

و يقول الشاعر:

إذا كنت فى نعمةٍ فإرعها فإن المعاصى تزيل النعم

و حُطَّها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم

11- نزول العقوبات العامة المهلكة:

فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن و أعوذ بالله أن تدركوهن:

1. لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون و الأوجاع التى لم تكن مضت فى اسلافهم الذين مضوا،

2. و لم ينقصوا المكيال و الميزان إلا و أخذوا بالسنين و شدة المؤونة و جور السلطان عليهم،

3. و لم يمنعوا زكاة اموالهم الا منعوا القطر من السماء و لولا البهائم لم يمطروا،

4. و لم ينقضوا عهد الله و عهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم و أخذوا بعض ما فى أيديهم،

5. و ما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم.

12- تجعل صاحبها من حزب الشيطان:

إن المعصية تجعل صاحبها من حزب الشيطان قال تعالى: (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)

كما أن الطاعات تجعل صاحبها من حزب الرحمن قال تعالى (ألا إن حزب الله هم المفلحون)

قال بعض السلف (رأيت العبد ملقى بين الله و بين الشيطان فإن أعرض عن الله تولاه الشيطان كما قال تعالى(و من يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين)

و إن من تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان)

- سؤال: هل يجوز لعن العصاة؟

الجواب: أما لعن الذات "أى الشخص" فلا يجوز إلا إذا تبين أنه قد مات على الكفر كأبى جهل و أبى لهب و غيرهما ، وأما لعن الصفات فيجوز مطلقاً لقوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين)

و النبى صلى الله عليه و سلم قد لعن أنواعا كثيرة من هذا فلعن آكل الربا و المصورين و السارق ... إلخ